الفصل الرابع والاربعون

في بيان انّ نفس السقط مثل النفس التي مكثت مع جسدها زمناً طويلاً

اعلم انّ الكيان الجوهري المتعيّن للنفس لم يزد ولم ينقص لأنهُ ذاتٌ لا عرَض. واماً عند فراق النفس من الجسد فلا يقال انّها برزت من العضو الفلاني او من الجهة الفلانية كما يظنّ البعض انّ النفس تبرز من الفم فانّ هذه واشباهها لا تليق بالنفس بل بالجسد. واماً فراق النفس للجسد فكمثل افتراق حرارة النار من الذهب المُحمّى ومثل قوّة الدواء اذا بطلت منهُ ومثل نور القضاء اذا زال عنهُ

الفصل الخامس والاربعون

في بيان انّ النفس اذا فارقت الجسم لم يصدق عليها الفساد والهلاك

لقد بيّنّا انّ النفس بسيطةٌ وانّها ذات واحدة وطبعُها الحياة وهي قائمة بذاتها غنيّة عن موضع توجد فيهِ. وكلّ من كان بهذه الصفة فهو باقٍ فاذن النفس باقية بعد الفراق — ونقول ايضاً لو صدق على النفس الفناء لكان ذلك وهي في عذاب الجسد اجدر واحرى لانّ المُبتلى بانواع الضيق اسرع الى الهلاك منهُ عند الفكاك. ولمّا لم يصدق عليها الفناء وهي تقاسي مرارة دواعي البدن امتنع عليها ذلك بعد فراق الجسد. وذلك ما اردنا ان نبيّنهُ

(التتمّة في العدد الآتي)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي

٣ نهر الكلب

انّ طريق جونية كما ذكرنا في مقالتنا السابقة يقطع نهرًا طالما ورد ذكرهُ في تاريخ سواحل فينيقية وهو نهر الكلب. وليست خطارة هذا النهر بعمق غَوْر مياههِ او طول مسافة سيلهِ لانّ اصلهُ كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جعيتا تبعد عن البحر ستّة اميال فقط وتختلط مياههُ عند خروجهِ بالمياه المنحدرة من أعالي لبنان من نبعَي اللبن

والاصل فيجري من ثم راغياً مزبداً حتى ينتهي الى البحر فيصبُّ فيهِ. واما لنهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لانَّ عند مصبّهِ مضيقاً لا بُدَّ من قطعهِ لمن حاول المرور في سواحل سوريَّة ولذلك اضحى هذا المكان في كلّ الازمنة كما أزق بهِ اصطلت نيران الحروب بين الملوك الفاتحين وسكّان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدَّمنا ان اسمهُ باليونانية (Λύκος) اي ذئب فعُرّب بنهر الكلب. ولكن أنّى لهُ هذه التسمية وما سبب هذا اللقب؟ نجيب انَّ الاقاصيص الشائعة بين العامَّة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها انَّ كلباً هائلاً كالفول كان يحرس هذا الممرّ الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحلّ لهُ لغزاً يعرضهُ عليهِ. وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطع الى فكّ احاجيهِ سبيلاً. ومنهم من زعم انَّ النهر دُعي كلباً لانَّ الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلب يعبدونهُ ويدَّعون أنَّهُ اذا وافاهم العدوّ ينبح الكلب فيحذّرهم من هجماتهِ. ويقولون انَّ بعض الصخور المجاورة للنهر تمثّل جسم هذا الصنم بيد انَّ رأسهُ قُطع فأُلقي في البحر. ولا نظنّ ان في هذه الاحاديث شيئاً من الصحَّة لانَّ العلماء لم يقفوا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلاً عن ان الكتبة الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امرهِ. والرأي الصواب عندنا انَّ النهر يُسمّى ذئباً او كلباً لضخامة صوتهِ عند انصبابهِ في البحر حيث تصطدم مياههُ بالامواج المتلاطمة فيسمع لهُ دويٌّ عظيم (١ ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاهُ القدماء نهر الاسد (Λέοντος πόταμος) فعُرّب بالليطاني وهو الذي يصبُّ في البحر بين صور وصيداء ويسمَّى عند مصبّهِ نهر القاسميَّة

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانيـة التي نُحتت في وسط الصخور المطلَّة على النهر جنوباً وقيل انَّ مرقس اوريليوس انطونينوس الملك (٢ بين سنتَيْ ١٧٧ و ١٨٠ وتُرّ هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمهِ « Via Antoniniana »

---

١) راجع Ritter: *Erdekunde XVII*, 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة لذكرهِ هنا

٢) قد وهم الشيخ طنُّوس الشدياق (ص ١٦) في اخبار الاعيان في جبل لبنان اذ نسب هذا المشروع لانطونيانس قيصر في سنة ١٤٧ والصواب كما ذكرنا. والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكر في الاولى تمهيدهُ للطريق

اما الجسر فكان سبقهُ الى بنائهِ انطيوخوس الاوّل المعروف بسوتير ملك سوريّة في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثم هُدم وأُصلح مرارًا (١ . والجسر الذي يُعرف اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامهُ السلطان سليم خان الاوّل فاتح الشام كما يُستدَلّ على ذلك بكتابة عربيّة رُقِمَت في عهدهِ ثمَّ جدَّد بناءهُ امير لبنان الشهير بشير الشهابيّ . وقيل انّ الجسر الباقي هو جسر ثان نصبهُ الامير بشير بقرب الجسر الاوّل بعد هبوطهِ (٢

ومن الاخربة القديمة ما تراهُ على الضفّة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناةٍ عظيمة كان الرومان ينوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا لجلب الماء الى طواحينهم

هذا على انَّ في جوار نهر الكلب آثارًا غير المذكورة آنفًا لها في تاريخ فينيقية اعظمُ شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر انكروا وجود هذه العاديّات (٣ مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السبيل . وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهميّتها للرسل الشهير الاب مكسيميليان ريلُو اليسوعي (٤ . فنقل رسومها بكلّ دقّة وبعثها لعلماء اوربّة ليجدُّوا في شرحها

وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارة عن خمسة عشر اثرًا اربعة منها خطوط اشوريّة بالقلم المساريّ وُجدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني عشر مترًا على مقربة الجسر الجديد بميلٍ قليلة الى الشرق . لكنَّ هذه الكتابات مطموسة لم يُستخلص بعدُ منها فائدةٌ تُذكر

اما بقيّة الآثار فموقعها على ضفّة النهر الجنوبية وهي احدى عشرة كتابة ما خلا الكتابتين اللاتينيّتين المذكورتين سابقًا

١ فاوّل هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفيّ

١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارتطاي المنصوري سنة ١٢٩٣

٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٢

٣) لو جمعنا كلَّ ما كُتب في هذا الخصوص للمدافعة عن وجود كتابات نهر الكلب او انكار ذلك لحصل من هذا المجموع كتاب ضخم الحجم (راجع مجلّة العاديّات سنة ١٨٦١ ص ٦٩) وما يزيدنا عجبًا انَّ العلّامة دي سوسي الكاتب الشهير لم يقتنع بوجودها مدّة سنين كثيرة مع انَّهُ اجتاز بقربها في غضون سفرهِ الى الشرق

٤) Ritter XVII, §34

تتضمَّن تقدمةً للاله « فتاح » المصريّ . وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخطّ الفرنسيّ مع حداثة عهده كاد ان يطمس رسمهُ مع بقاء كتابة مرقس اوريليوس بعد ستة عشر قرنًا

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماري مرقومها بجانب الطريق كالاولى وهي تمثل صورة ملك اشوري واقفًا بيده

٣ وبقرب هذه صورةٌ اخرى اشوريَّة توارى معظم رسمها فلا يُبرَز منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين مترًا فوق الطريق القديمة المشرفة على الطريق الرومانية تجد صورة اخرى اشوريَّة طامسة الاثر

٥ و٦ ثمَّ هناك ايضًا كتابتان يونانيَّتان ذهب الدهر بحروفها فلا يُرى منهما الَّا اليسير . وقد زعم دليل بيديكر (١ انَّ احداهما لاتينيَّة والصواب كما قلنا

٧ وتليهما صورة اخرى اشوريَّة

٨ ثمَّ نُصُبٌ مصريّ يمثل احد الفراعنة منتصبًا يقرّب قربانهُ لاله الشمس « راع »

٩ وفي تلك الجهات ايضًا كتابة اشوريَّة مع صورة ملك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

١٠ ثمَّ رقيمٌ مصريّ فيهِ صورة بعض الفراعنة والاله عمُّون

١١ واخيرًا صفيحة متقنة الرسم تمثل ملكًا اشوريًا ذا لحية طويلة مجعَّدة لابسًا رداء سابغ الذيل وعلى رأسهِ تاجُ ملوك اشور وفي يدهِ اليمنى بقصرة يسندها الى صدره

فاقدم هذه الكتابات هي الخطوط المصريَّة التي امر برقمها رعمسيس الثاني فرعون موسى المعروف عند اليونان بسيسوستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر قبل المسيح يصف فيها غاراتهِ وفتوحاتهِ العديدة (راجع المشرق ص ٨٨٨ و ٨٨٩)

امَّا الكتابات والصور الاشوريَّة فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل انَّ احداها تمثل سنحاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوتهُ وسوء منقلبهِ نحو سنة ٧٠١ قبل المسيح . والمظنون انَّ بقيَّة الصفائح تتضمَّن صور الملوك الاشوريين تغلات فلاسر الاوَّل وسلمناصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثًا في بابل قد بالغوا في وصف

---

١) راجع دليل بيديكر الطبعة الرابعة الالمانية (Baedeker, p. 331)

غزواتهم لاسيما فتوحهم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية . فكون اذًا هذه الصفائح دليلًا على مرورهم في هذا المضيق وتذكارًا لغلباتهم

وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتّى كثيرة الى ان اجتازهُ انطيوخوس الكبير والجأ جيوش البطالسة ان يفرُّوا امامهُ هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرَّر ايضًا ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنج مناصًا من عبورهِ في سيرهم على ساحل البحر . ومما يخبر انَّ بلدوين الاوَّل لمَّا سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاهُ غدفريد في المُلك كاد يذوق في هذا المرّ كأس المنيَّة لولا حذقهُ وشجاعة فرسانهِ

وجاء في معجم البلدان لياقوت (٤ : ١٧) انَّهُ كانت قلعة فوق رأس نهر الكلب (١ ولا غرو ان ملوك الشام حصَّنوا هذا المركز المنيع لدفع شجات المعتدين (١

ومن غريب ما ذكرهُ الجغرافيّ اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر الكلب بسفنهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلَّهُ شبَّه الامر على اسطرابون لانَّ هذا نهر كثير الصخور لا يخلو من العقبات سوى عند مصبّهِ . وليت شعري ما الفائدة من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيهِ ضيعة مأهولة (٢ . ومن المحتمل انَّ هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبّهِ فكانت السفن ترسو عندهُ كما في ميناء فتصونها من الرياح الصخور المنتصبة في جهتها الجنوبية . ولا يبعد ايضًا القول ان سفن التجَّارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعهِ في قمم الجبال ودفعهِ على وجه المياه الى هذا المكان (٣

ويشرف على نهر الكلب من جانبهِ قرية بأُونة ودير طاميش والظاهر انَّ في مركزيهما كان هيكل للاصنام فتكون بأُونة تصحيف اسم الاله ابأُرن (Ἀπόλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة (Ἄρτεμις) وهي المعروفة ايضًا باسم ديَّانة . وقد وُجد ايضًا مدافن قديمة قريبًا من عين طورة (باقي البقية)

---

١) ويقول ياقوت ايضًا ان هذا الحصن يبعد ستَّة اميال عن المرداسيَّة على مسافة ثمانية اميال من بيروت . وكذا ورد في ترجمة المشاتي للادريسيّ (ص ١٧ ed. Gildemeister) . فيتَّضح من قولهما انَّ المرداسيَّة بين بيروت ونهر الكلب بيد اننا نجهل موقع المرداسيَّة هذه . ويروى : المزداسيَّة

٢) Mission de Phénicie

٣) Russegger: *Reise*, III, 153